من مذكرات عمر بن أبي ربيعة

أيام حزينة

للأستاذ محمود محمد شاكر

« قال عمر بن أبي ربيعة ... » :

وجاء ابن أبي عتيق [هو عبدالله ابن محمد أبي عتيق ابن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق] ، فوالله لأن كنتُ بين ضِرْسين من الجبل يدوران عليّ دَوَرانَ الرّحى ، أهونُ عليّ من أن أكون لقيتُ هذا الرجلَ الحبيبَ !

كانَ رجُلاً ضَرْباً خفيفَ اللّحم أحْمَر ظاهِرَ الدّم كأنَّ إهابَه شُعْلَةٌ تَشِبُّ وتلهّب ، أفرعَ فينانَ الشَّعَر ، مخروطَ الوجه ، أزهرَ مُشرِقاً كأنّ بين عينيه نجماً يتألّق ، يُقبِل عليك حُرُّ وجْهه بعينين نجلاوين قد ظَمِئ جفناها حتى رقّا ، يرسِلُ إليك طرفَه فترى الضحكَ في عينيه خِلْقةً لا تكلّفاً . ما أحسبني رأيتُه مرّةً إلاّ خِلْتُه دُعابةً قال لها الله : كوني ! فكانَتْهُ . وكأني به قد دَخَل على أمّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق وهي تَكِيد بنفسها — في مرضها الذي ماتت فيه — يَقُول : كيفَ أصبحت يا أمّاهُ ؟ جعلني الله فِداكِ ! فتقول عائشة : أجِدُني ذاهبةً يا بُنَيّ ! فيقول : فلا إذَنْ يا أمَّ المؤمنين ! ! فتبسم عائشة وتقول : حتى على الموت يا ابن أبي عتيق ! ! فيقول : أرضاكِ الله يا أمّاه ! لو جاءني الموتُ كارهاً ما يأتي على حَدّه ، ما تركْتُ له دُعابتي حتى يستضحكَ ، فيرحَل بي عن الدُّنيا بوجْهٍ غير الذي جاء به !

فلو أنّ امرأً من عُرْض الناس لا أعرفه ، جاءني فزعم أنّ نجماً في السماء بكى ، وأن القمَر مدّ إليه مثلَ اليَد فكفكف من عَبَراته ، لكانَ أقربَ إليّ مِنْ أن يأتي آتٍ يقول هذا ابنُ أبي عتيق يمشي في الناس بعينين ضارعتين خاشعتين ذاهلتين يُعرفُ فيهما البُكاء !

رجل صالح تقي خفيف الروح نشوان القلب ، قد انحدر من جده [عبد الرحمن بن أبي بكر الشاعر] ، حنين الشاعر حين يرى الدنيا كالغانية المتعَمة تتصبَّى له وتتقتّل ، فيحن إليها بصبَوات الشباب المتوهّج ... وآب إليه من جده [أبي بكر الصديق] حنَانُ التقي وهو يرى الدنيا كالناشئة الغريرة لا تزال تنشُدُ تحت جناحه دِفءَ الأبوّة فتأوي إليه وتتضوّرُ ، فهو يخفض لها من رحمة الوالد المتحنن ... فابن أبي عتيق من هذين الأبوين كالربيع : جمال وشباب ، ورقة وحنان ، وفرح لا ينتهي

وكنتُ أجدُه فيما يتوقّدُ عليّ من الكُرَبِ كالغمامة النادية : ظِلٌّ وريٌّ ، ثم لا يزالُ بي حتى أنام إلى دُعابته ، فإذا آلامي تطوف بي من بعيدٍ كأنها أحلام ، بعد أن كانت في دمي جمرةً تتلذّعُ . ولقد أكونُ مما أستعمي عليه بأحزاني ، فأريدُ أذهبُ عنه نافراً أبتغي أن أعكُفَ على آلامي كما يعكُفُ العابد على بُدّه ، فما هو إلا أن يأخذَ ينشد :

متى تَرَ عيْنَيْ مالكٍ وجِرانَه — وجنبَيْه ، تعلَمْ أنه غيرُ ثائرِ
حِضَجْرٌ ، كأمِّ التّوْأمين توكّأتْ — على مِرفَقَيْها مُسْتَهِلَّةَ عاشِرِ (١)

فينشد أغرب إنشاد وأعجبه ، ولا يزال يحرّك ويشير ويمثّل ، فوالله ما من ساعة أنشدنيها هذين البيتين ، وأقبل عليّ يُريني ما يأتي به ، إلا نبَع الضحك من قلبي دفعة حتى ما أتماسك معه

فكيف به اليوم وقد سكنَ كأنه دمعةٌ خافتة تئنُّ تحت الزفرات ، يمشي إلى كأن أيّامه تطوفُ به ثاكلاتٍ نائحاتٍ ، يغض طرفه كأنما يُمسك عبرةً همّتْ هاربة من الأسر ، يطأطئ هامته كأنما يقول للزمن : تخطَّ ، فلم يبق بيني وبينك تحملُ أيها الجبّار ، يستكين حتى لإخاله يجمعُ أطرافَ نفسه لا يزاحمُ أفراحَ الناس بما يريدُ أن يتنفّسَ من أحزانِه

(١) الجران : باطن عنق البعير ، واستعاره الشاعر للمرأة . والحضجر : العظيم البطن الواسعه ، وهو حرف ساخر الجرس والحركة .

لك الله يا ابن أبي عتيق ! لقد كانت لك كالجدول النّامي النّمير : هو سرّ الأرض ، وسرّ العود ، وسرّ الزّهر ، وسرّ المطر ؛ فلما جفّت عنك همدت أرضك ، وظمئ عودك ، وصوّح زهرك ، وتهارب عطرك . . . زوجة كانت تستودع روحك مع كل شارق ، ما تتملّى به أفراحك ولهوك ودعاباتك ، فتخرج إلى أحبابك لتحمل عنهم همومهم فتغرقها في ذلك البحر الخضمّ من الفرح والابتسام والرضى !

***

ودخل ابن أبي عتيق فسلّم سلام الذاهل المتولّه ، ثم جلس كأنما هو يلقي عبئاً ثقيلاً كان يمشي به ، ثم نظر في عينيّ بعينين نديّتين ترى في غوريهما ذلك التنّور المتضرّم يتقاذف شعله في ثنايا النفس وفي مسارب العاطفة . وأدام النّظر لا يرفعه عني كأنما يقول : انظر واعرف ولكن لا تتكلّم ! فأشهد أني افتقدت ما أقول أعزّيه به أو أرفّه عنه ، بل كأنما أفرغ بعينيه في عينيّ من أحزانه ، حتى أراني أجد مسّ النار في صدري وهي تستعر

ولكني خفت على صاحبي ورفيقي إن أنا سكتّ له ، أن أكون قد خلّيت بينه وبين همّه ، وإن أحدنا لو قعد يمارس أحزانه يوماً بعد يوم لصرعته . أجل ! وإن الحزن ليهجم على النفس كالسّبع الضاري ، حتى إذا عبر إليها وقف يستأنس متلفّتاً يريد ما يختلج أو يتحرّك ، فما هو إلا أن يهوي إليه فيبطش به ، أو ينشب فيه براثنه ينفضه ثم يقضقضه حتى يهمد . وإذا خُلّي السبع لا يُذاد ولا يُطرد بقي حتى يتأبّد ويستوحش . ولا يزال على عادته يستمرئ كل ساعة فريسته يغمس في دمها أو يلغ ، ثم لا يكفّ حتى تكفّ الحياة عما ينبض أو يتنفّس

وأخذت أزوّر له الأحاديث في نفسي . فلما هممت بها لم أقل إلا ما يقول الناس : عزاءك يا أبا محمد ! فوالله كأنما هجت بها الطير الجثوم ، وظل وجه ابن أبي عتيق يروح الدم فيه ويغدو ، وجعلت عيناه ترسلان على نظراتهما الدمع الذي لا يسفح ، والعتب الذي لا يتكلم ، وظلّ صامتاً ، وراحت نفسي تتخزل عما أقدمت عليه ، ولكنه لم يلبث أن زفر إليّ زفرة خلت في نفثاتها شرراً يتطاير . ثم قعد يتململ حتى قال :

إن أيامي — يا أبا الخطاب — قد استحالت تيهاً أمشي فيه على مثل هذه الجمرات ، ولقد كنت مما عهدتني ، والأيام من حولي عرس لا أعدم فيها ما أطربُ له . كنت إذا ما حزن بعض أيامي ، أجد من أفراح الماضي ما أهرب إليه بالذكرى ، وأتوهّم من نشوة الآتي ما أتراءى إليه بالأمل ، فكنت أعيش بفرحة أحضرها أو تحضرني لا أخاف ولا أجزع ولا أتوهم في الحياة إلا الخير . فأما وقد أبت بنات القدر إلا أن تنتزع من كفّيّ ما كنت أضنّ عليه ، فهيهات لها بعد اليوم أن تطيق انتزاعه من فكري . آه ... آه يا عمر ! كانت ملء عيني وروحي وقلبي . كنت أعيش تحت نسيمها كالنشوان ذاهلاً عن الألم مهما أمضّ ، مستصغراً للكبير وإن فدح ، راضياً باسماً متحفّزاً ... إذ كانت هي هي الأماني تتجدّد مع أيامي عليّ وتتبلّج مع كل فجر في قلبي ، ما كنت جزوعاً ولقد جزعت ! كيف قلت : عزاء يا أبا محمد ! ها الله يا ابن أبي ربيعة

كيف صبري عن بعض نفسي! وهل يصبر عن بعض نفسه الإنسان ؟

كانت بيني وبين الدنيا ، وكانت آية الرفق والفرح ، فكنت أرى الدنيا بعينيها مشرقة من تحت غياهب الأحداث ، فالآن إذ نامت عني، كيف أرى إلا قطعاً من الليل تغتالني من كل وجه، أو أشلاء من الدياجي تجثم لي بكل سبيل ؟

ثم رأيت في عينيه الملل وهو يطوي على نظراته ما نشرته الحياة من همة النفس ؛ وتخيلته — حتى كدت أتبينه — شبحاً ينساب في ظلمة الليل فرداً قد انخلع من الحياة وأسبابها ، فهو يضرب في حشا الظلماء بسآمة لا تهتدي ولا تريد أن تهتدي ، وقد كنت مما شجيت له أن أدع إليه الحديث حتى يستتمّه ، ولكني أعرف في قلبه الرقّة ، فخشيت أن يمضي به الحزن على غلوائه ، فقلت له :

مه مه يا أبا محمد ، والله ما أنكرتك منذ عرفتك ، ولكني اليوم منكر لك أو كالمنكر . أليس لك في إيمانك وإيمان آبائك معتصم أيها الشيخ ؟ ما إسلامك النفس للجزع وما غلوّك فيه؟ إن امرأ يؤمن بالله واليوم الآخر لخليق أن يستكين إلى قضاء الله استكانة الوليد إلى أمه . وإن أمراً يختاره الله لامرئ هو أهدى سبيليه لا ريب ، شقي بذلك أم سعد ، وما يمسك النفس على أحزانها للأمر من قدر الله إلا الشيطان . خبّرني يا أبا محمد ! هل ابتُلي الناس فيما ابتلوا به بما هو أفظع من فجيعتهم برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ كلا ! لقد حزن الناس حتى أخذتهم آخذة ، وحتى أنكر أحلمهم حلمه ، وحتى إن بعضهم ليوسوس ، فقام إليهم جدّك الصديق فرد الناس إلى أحلامهم ، وهو أشدهم حزناً على صاحبه ورفيقه ؛ فعلّم الناس أن الحزن للقلب وحده ، وأن

العقل والجوارح إنما هى للعمل ، وأن هذا هو طريق الإيمان بالله وبقضائه : خيره وشره ، أفأنت من يَجور عن سنة الله وسُنة المهتدين من آبائه يا أبا محمد؟ كنتَ المرء الصالح الذى يرى الدنيا بعينىْ زائلٍ ، فما بالك اليوم تراها بِعَيْنَىْ متشبث قد أنشب فيها أمثال البراثن من عقله وفكره ، فهو يتأبى أن يدور فى وهمه أنه مفارقها ؟

قال ابن أبى عتيق :

حنانيك يا عمر ! فوالله ما تعلمنى يا ابن أبى ربيعة إلا ما علمت . لقد تَجمتْ منى الحوادث صخرة مُلمْلمة لا تضرع . كم سحرْت من الدنيا وأحداثها ، فجعلتُ أطويها فى دُعابتى طىَّ المُلاءة ! كنت أتخفَّفُ منها بنشوة أُحْشها فى قلبى ، فلو كان عليه مثل الجبل من الهمِّ لطار فيها كما تطير خافية من جناح . ولكنى اليوم ... آه ! لقلَّ ما جرَّبتَ يا عمر ! أسلمتُ لله مُقْبِل أمرى ومُدْبِرَه يصرِّفه كيف شاء . ولكنى أجدُ هذا القلب المُعَنَّى لا يزال يخفق بالذكرى ؛ أفأنت منكرٌ علىّ يا عمر أن أذكرها نسيماً رفرف بين الجوانح والقلب ؟ أنَّى لى أن ألوِىَ النفس عن آثارها ، وما أكاد أرى شيئاً إلا خلته يحدثنى حديث الثاكل : أنينٌ وحنين ؟ فأين المهرب ؟ دع عنك يا أبا الخطاب ! أأراك تَلْحانى على الجَزَع ، وما على ظهرُها أشقى ممن يُصبح ليفتقد فى نهاره حُلماً ضَلَّ عنه مع الفجر ؟ كم خلوت إلى هذه النفس ألومُها كالتى تلوم ؟ وكم وقفت على هذا القلب أذكِّره ما يذكرُ الناس منى ، فإذا الذى كان بالأمس قد أصبح وكأنه أديمٌ مرقوم قد تفرَّى عاثَ فيه البلى فمحاه . أريد ، ويا لضلَّتى فيما أريد ! أنا كالسارى فى لُجَّة الليل يلطم فى سوادها ، قد أضاع لؤلؤة يَبحثُ عنها بين الحصى والرمال ! . . . لن أعودَ إلى الناس حتى أجد لؤلؤتى يا أبا الخطاب ... لن أعود

ورأيتُ الرجل ينتفض انتفاضة المحموم من هول ما يجد ، فرحمته ، ولكنى آثرت أن أدور على بُنَيَّاته ، عسى أن يأوى لهن فيؤوب إلىّ كبعض ما كان ، قلت :

ظلمتَ نفسَك يا ابن أخى فظلمت من لا يلوذ إلا بظلك . صغيراتٌ ضعيفات ضائعات : فمن لهن بعدك ؟ لو كنتَ وشأنك لهان الأمر ، ولكنك اليوم تُحفظت من لا يحفظه بعد الله إلا رحمتك ، ومن لا يغذوه بعد الطعام إلا حديثك ، ومن لا يضىء له وجه الدنيا بعد النهار إلا ابتسامك ، ومن إذا أُهمل ضاع عليك ضيعة الأبد . إنهن بناتُك منها وبناتُها منك ، فوالله ما تذكرها ذِكراً فى شىء هو أكرم وأحب وأرضى عندها منهن . أجمِلْ يا أبا محمد ، أجمِل!

فرفع إلىّ رأسه ونظر ، ثم ربا صدره بالزفرات وهو يقول :

لقد كنت أخشى لو تعليتِ خشيتى !

عليكِ الليالى كرَّها وانفتالها

فأما وقد أصبحتِ فى قبضةِ الرَّدَى

فشأن المنايا ، فلتُصِب من بَدَا لها

... لولا علمتَ يا عمر ! كيف ــ بربك ــ كنتَ تَرانى أحبوهنَّ من قلبى خفقات لامعات باسمات ؟ كنتُ لو أطقتُ أن أجعل قلبى بينهن لهواً يَتلعَّبْنَ به لفعلت ! فانظر إليك ماذا ترى ؟ ما شىء أجتلب به على قلبى ألماً كنوافذ الإبر إلا رؤية هؤلاء الصغيرات الضعيفات الضائعات ؛ وإن إحداهن لتعدو إلىَّ تستأوى فأحملها ؛ فكأن قد والله حملتُ بها صخرة مسرفة يُعيي حملها ، لولا بقية من رحمةٍ ــ يا عمر ــ لنفرتُ عنهن نفرةً واحدة لا أراهن ولا يريننى

أفزعنى والله الرجل ، ولكنى فهمت عنه ما يأتى به . إنه لا يزال يراها بعينيه تحول بينه وبين صغاره . إنه يريدها ويريدهن جملةً واحدة ، فإذ ذهبت هى ، فكأنما ذهب منهن الذى كان يراه فيهن . يرحمك الله يا ابن أبى عتيق ! فأما إذ بلغ به حبها هذا المبلغ من اليأس ، فلا والله ما ينجيه إلا أن يحتال ، فقلت له :

أأراك أُنسيت ذكر ربك يا أبا محمد ! أتُرانا نعيش فى هذه الأرض إلا بما نرجوه عند الله فى غيب الله ؟ فلولا ما نمثله فى أنفسنا من الرجاء ، ما نبض لامرىء عرقٌ مما يأخذه من السأم . وأنت ، أفيخفى على امرىء فى مثل عقلك أن يجعل من مفقودٍ يحبه رجاءً يستمسك به ؟ انظرها يا ابن أبى عتيق بين عينيك ، ولا تدع البَدن الراحل يَغلبُك على ما يحضرُك من روحها . إنك بعينيها ما عشت ، فلا تحسبنَّ أحزانك التى تبتغى أن تسلَّب بها فى حياتك ، تجعلها تنظر إليك راضية مطمئنة

لا تشكَّنَّ يا ابن أخى ، فوالله إن الجسد لينهب إلى البلى ، وإن الروح ليخلد ، فما ترضى من يحبك بأمثل من أن تكون فى غيبه ما كنت فى محضره : « إن القلب ليحزن ، وإن العين لتدمع ، ولا نقول ما يغضب ربنا » وصدق رسول الله . وما ذلك إلا أن نقصر الحزن ، وأن نجعل أقوالنا وأفعالنا مرضاة لمن نحب وطاعة . ولا تستطيلنَّ ما بين الحى والميت ؛ فإنما هى ساعات قلت وإن أطلت لها . يا أبا محمد ! أرض ربك وأرض صاحبتك ، واجهد أن تكون كما أحبت لك ، فإنك عن قليل تلقاها ، فلا يلقها منك إلا ما تعرفه دون ما تنكره . . .

محمود محمد شاكر